إذا كان الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون في حدود التصور الإسلامي لها فهو بذلك أدب ملتزم [1] ، والتزام الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية ، ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم.

الأدب الإسلامي في المدونة التونسية :

غزارة النصوص .. وإشكالية المصطلح!

بقلم: بلقاسم برهومي
تونس

وفيما أعرف أن الأدب الإسلامي في تونس لم يحظ من الدارسين بالعناية التامة على الرغم مما تكشف عنه مدونة الأدب التونسي المعاصر عند استقرائها من غزارة النصوص في شتى الأجناس الفكرية التي تلتزم أو تنطلق من التصور الإسلامي الذي يتمثل قيم الحق والخير والجمال في أصالة وتجذر بعيداً عن الالتزام كما حددته « الواقعية الاشتراكية » .

ويذهب بعض النقاد إلى أن النتاج الأدبي عامة وليد انفعالات مختلفة وأحاسيس متباينة مما يستعصي على التصنيف والتبويب ، وفي هذي المقاربة سنسعى أو نحاول اقتفاء أثر وحضور الأدب الإسلامي من خلال تلك المدونة الحافلة بعديد من الأسماء على غرار الراحل الشيخ الحبيب المستاوي الذي توفي سنة ١٩٧٥م، وكان - رحمه الله - يعد من دعاة الإصلاح فأنشأ مجلة « جوهر الإسلام » عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، وهي أول مجلة إسلامية تصدر بتونس بعد الاستقلال . كما قدم برامج إذاعية تنويرية توعوية من إذاعتي تونس وليبيا، ومحاضراته عبر الملتقيات والمؤتمرات العربية والإسلامية ، وقام لسنوات طويلة بالتدريس بفروع الزيتونة والمعاهد الثانوية والكليات ، كما تميز بتفسيره لعدة أجزاء من القرآن الكريم ، وله ديوان بعنوان « مع الله : تأملات شعرية » نشر بتونس سنة ١٩٨٠ م بعناية نجله الأستاذ صلاح الدين المستاوي . وقارئ هذا الديوان يجد الشاعر الشيخ الحبيب المستاوي ملتزما بالتعبير عن رؤاه ومواقفه من قضايا عصره من الوجهة الدينية الصحيحة الخالية من الشبهات المغرضة، والنقية من ادعاءات المغالين والمتعصبين ، كما يلاحظ دعوة حارة إلى الشباب للأخذ بأسباب العلم والعقل والحكمة ، وتفنيد لآراء المفترين والمتشددين ، فهو يضع النقاط بوضوح في أسباب الوضعية المتردية

للأمة العربية والإسلامية ، إذ إنه يرى السبب الأول ابتعاد جموع المسلمين عن دينهم :

وقد جرف التيار أمة أحمد
حنانيك ربي فلتصنها من الجحد
ولولا ابتعاد المسلمين عن الهدى
لما كابدوا داء القطيعة والحدِ
ولو طبق الإسلام وفق نصوصه
لأوفى لهم رب البرية بالوعدِ

وهكذا يفند الشاعر تهم الأعداء وافتراءتهم التي ترمي التهمة[٢] على الإسلام كسبب رئيسي لتخلف المسلمين فلو طبق المسلمون مبادئ وأحكام دينهم، ولو أقاموا أمور المجتمع كلها على أساس من شريعته الغراء السمحة لانتصروا ، فهو ينطلق في شعره من واقع الأمة الإسلامية وهو يشاهد مقدساتها تهان وتداس :

أمة الإسلام هل يوقظها
مشهد الأقصى ونار تلتهبْ
ليتها يخرج منها قائد
يبعث الدين فتنزاح الحجبْ
كابن تشفين وقطز بعده
وصلاح الدين لما أن وثبْ
فافيقوا ويحكم طال الونى
والعبوا في الكون دور المنتخبْ[٣]

ويدين الحضارة الغربية التي ظهرت في شكل بهرج وطلاء وموضات ومادية صارخة وقنابل للفناء والهدم وخدعت المسلمين فلم يجنوا منها غير الخيبة لأنها عجزت عن منح سعادة الروح المنشودة :

وما فلسفات الغرب إلا خرافة
وماهي إلا كالطلاء على الجلدِ
لئن حققت بالعلم زحفا إلى الفضا
وانتجت الصاروخ للفتك والهد
فما حققت للروح شيئا مشرفا
يميز أهل العقل عن فئة الأسْدِ

على أن الشاعر لا ينكر العلم ونفعه:

ولست أعادي العلم أنكر نفعه
ولكنه صار كالمارد الوغدِ[٤]

وأصدر الشاعر نور الدين صمود ديوانه بعنوان : «نور على نور » استوحى قصائده من القرآن الكريم واستلهمها من أمكنة متعددة وشخصيات لها دورها في التاريخ الإسلامي ، فمن عرفات إلى غار ثور ومن الأزهر إلى جامع الزيتونة ، ومن صور النعيم ومنازل أصحاب الفردوس وجنة الخلد إلى صور الجحيم والهول في مستقر الضالين والمغضوب عليهم ، ذلك أن الشاعر قد تأثر بالروح الإسلامية الصافية وبكتاب الله أساسا الذي أثر منذ نزوله إلى يوم الناس هذا في كل كاتب أو خطيب أو مفكر أو شاعر .

ففي قصيدته : «معلقة» نجده يستنهض الهمم في واقع الأمة:

كل يوم نقول : استفقنا
وسنمحو من أرضنا كل غاصبْ
فإذا بالعدو يسطو علينا
وإذا نحن نوم كالأرانبْ
ويحار السؤال: كيف انهزمنا؟
بعد ما ساد جيش طه المحاربْ
سار في الأرض كانبثاق صباح
وطواها مشارقا ومغاربْ
نشرته في البيد خيل عتاق
ورمته خلف البحار المراكبْ [٥]

وفي لوحة نثرية بعنوان « تجليات مع القرآن الكريم .. في ليالي رمضان المعظم» كتب الأديب الشاذلي زوكار : «وكلما كبرت وتدرجت ، ورغم مطالعاتي المتنوعة يبقى القرآن الكريم سيد الكتب المقدسة ، والملهم الوحيد بألفاظه ومعانيه التي أحاول دائما أن أفهمها من خلال التفاسير والتحاليل وخاصة منها المعاصرة التي تربط بين إعجاز القرآن والعلوم الحديثة .. باعتبار أن القرآن كنز الإنسانية جمعاء سواء فيما تضمنه من أحكام أو معاملات أو نظرات علمية لم يدركها الإنسان بعد .. والغريب ولو أن هذا ليس بغريب أنك كلما تلوت القرآن اكتشفت شيئا جديدا فيه ...»[٦].

وفي قصيدته « شهر الصيام » يرحب الشاعر محمد العربي الكبادي بإطلالة الشهر المبارك :

أهلا وسهلا بشهر الصوم والبركة
ومن به أمم الإسلام مشتركةْ
يلقونه مثلما يلقى أخو شغف
حبيبه بعد بين مؤلم عركةْ
به تفتّح أبواب الجنان وفي
أيامه يتجلى الأنس والبركةْ [٧]

وفي قصيدته المعنونة « الزيتونة» يشيد الشاعر د.جعفر ماجد بدور جامع الزيتونة ، هذا المعلم الحضاري الذي مر على تأسيسه ثلاثة عشر قرنا وكان ولا يزال منارة مضيئة للعلم في أنحاء المغرب العربي :

تلك زيتـــونة يجللهـــا الوحي
زكت منبـــتـــا وفـــاحت ظلالا
بـــارك الـــلـــه بـــذرة فـــي بـــلاد
شـــربت مـــاءها النمـــيـــر الزلالا (٨)

وهذا الشاعر عبد الحميد العماري في مناجاة صادقة يقول :

رب هب لي وازعـــا أن أذكـــركْ
وإذا أعطيـــــتني أن أشكركْ
وإذا لم تعطني لا أكـــفـــركْ
رب ســـبـــحـــانك يا أعلى ملكْ
يا إله الكون جلت قـــدرتكْ(٩)

ويتمثل القاص عبدالعزيز شيشي في إحدى قصصه الهـدف النبـيل من سلسلة « الطريق إلى الله » التي نشرتها مجلة«الفيصل » السعودية ، يقول على لسان إحدى شخصياته القصصية: « لست أدري ما اعتراني .. لكأنني أستمع إلى هذا المؤذن لأول مرة .. كلماته تحفر في ... كأنها معاول كبيرة مصقولة ، تهد جبالا من الرواسب السوداء التي تراكمت على مدى السنين : (الله أكـبـر ، الله أكـبـر ، الله أكـبـر) مـا أعظم وقع هذه الكلمات!... أين أنا ؟! ... أأنا في حلم جميل ..؟! .. هل كنت يائسة قانطة ودخلت دنيا الأمل ؟! ... ،وخطوت في (طريق الله) ؟! ... انتـهى الأذان ، ولم تنتـه الشـعلة المقدسة التي قذفتني خارج أسواري .... » (١٠) .

وأصدر الشاعر الناصر الصدام ديوانه بعنوان : «ابتهالات»نقتطف من إحدى قصائده :

ريـاه لا أحـــــدٌ ســـــواك أؤمل
منك المكارم والعطاء الأجـــــزلُ
يا من إليـــــه الأمـــــر يرجع كله
وعليـــه في كل الأمـــور أعـــولُ

وقد لا تتسنى لنا الإحاطة التامة في بحث موجز بكل نماذج وألوان الأدب الإســـــلامي في المدونة الفكرية التونسية المعاصرة، وهي نماذج غزيرة ومتنوعة يزخر بها سجل الأدب التونسي الحديث، فبالعودة إلى مدونته واستقراء نصوصها نجد بالإضافة للشعر والكتاب المشار إليهم سابقا عديد الأسماء الأخرى في الشعر والقصة والرواية أو البحث والدراسة والنقد والمقال ممن يتوافر في نتاجهم أثر وملامح الأدب الإسلامي وأهدافه الأصيلة ومنهم - على سبيل الذكر لا الحصر - البشير العريب - قاسم بو سنينة - د . عثمان بطيخ -الشيخ كمال الدين جعيط - الشيخ عبدالعزيز الزغلامي - الشيخ محمد المختار السلامي وغيرهم .

على أنه تجدر بنا الإشارة في ختام هذه المقاربة أن نصوص و أبحاث هؤلاء الكتاب وسواهم وإن تسنى للباحث إدراجها ضمن منظومة وسياق الأدب الإسلامي لمطابقتها حدود التصور فيه والتزامها بنهجه إلا أن ساحة الأدب المعاصر والحديث في تونس لم تعرف مصطلح الأدب الإسلامي ولم تتداوله ، فهل ترى تجاوز الدارسون والنقاد هذا المصطلح لما قد توحي به الأعمال الأدبية فيه من سمات الوعظ والإرشاد ؟!

أو كان يخشى على تلك الأعمال أن تتسم بذلك فضلا عن التقريرية والخطابية التي يزعمون اتصافهم بها ؟ !.. أم .. ؟! ..■

الهوامش

(١) راجع مجلة «الفيصل» السنة ١٥ ، العدد ١٧١ ، رمضان ١٤١١هـ / آذار (مارس) نيسان (أبريل) ١٩٩١م . ندوة العدد : الأدب الإسلامي .. ماهو ؟ ، ص ٣٩ .

(٢) راجع ديوان « مع الله : تأملات شعرية » للشاعر الراحل الشيخ الحبيب المستاوي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ط١ ، ١٩٨٠م .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه .

(٥) راجع ديوان « صمود: أغنيات عربية » للشاعر د. نور الدين صمود ، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ، تونس ، ط ١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م ، ص ١١ .

(٦) راجع «الملحق الثقافي » بجريدة الحرية التونسية ، العدد ٢٥١ ، رمضان ١٤١٤هـ / مارس ١٩٩٤ م ، ص ٤ .

(٧) راجع «الملحق الثقافي » بجريدة الحرية التونسية ، العدد ١٩٧ ، ١٩٩٣ م ، ص ٧ .

(٨) راجع «الملحق الثقافي » بجريدة الحرية التونسية ، العدد ٣٤ ، رجب ١٤١٧هـ / ديسمبر ١٩٩٦م ، ص ٦ .

(٩) راجع «الملحق الثقافي » بجريدة الحرية التونسية ، العدد ٤٠٢ ، رمضان ١٤١٧هـ / يناير ١٩٩٧ م ، ص ٥ .

(١٠) راجع مجلة « الأخلاء» التونسية ، السنة الأولى ، العدد ٤ ، يونيو ١٩٧٩ م ، ص٢٩ .

(١١) راجع ديوان «ابتهالات » للشاعر الراحل الشيخ الناصر الصدام، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٠م ، ص ٥ .